نأتى بعد فاتحة الكتاب إلى سورة البقرة . . وهى التى تلى الفاتحة فى ترتيب المصحف الشريف . . واذا نظرنا إلى إسم السورة وجدنا أنه لابد أن يثير انتباهنا . . لأن القرآن الكريم نزل فى بيئة عربية . ولم تكن البقرة وقت نزول القرآن الكريم حيوانا معروفا أو من الانعام التى يعرفها العرب فى ذلك الوقت .

نقول إن اسم السورة قد أخذ من قضية أساسية فى الدين وهى الإيمان بالبعث . . والإيمان بالبعث هو أساس الدين . . فمن لا يؤمن بالآخرة والبعث والحساب يفعل ما يشاء فى الدنيا دون أى وازع . لأنه مادام ليس هناك بعث تصبح الدنيا غابة . . ويصبح الدين بلا مفهوم . . لأن أساس العبادة هو أن الحياة الحقيقية فى الآخرة . . وأن الدنيا هى دار إختبار ودار أغيار . . أما الآخرة فهى دار نعيم مقيم . ففى الدنيا إما أن نفارق النعمة وإما تفارقك . . تفارقها بالموت . . أو تفارقك بأن تزول عنك . أما الحياة التى لا تفارقك فيها النعمة ولا تفارقها فهى الآخرة . . لذلك فإن كل عمل المؤمن فى الدنيا مقصود به الجزاء فى الآخرة .

ومنهج الله فى الأرض يقودك الى الجنة إن طبقته ، والى النار والعياذ بالله إن خالفته . . اذن فقضية الايمان كلها مبنية على الايمان بالبعث . وسورة البقرة فيها تجربة حدثت مع بنى اسرائيل . . ورأوا البعث وهم مازالوا فى الدنيا ؛ حين بعث الله سبحانه وتعالى قتيلا لينطق بإسم قاتله . . ثم مات بعد ذلك .

والقصة أن رجلا من بنى اسرائيل . . كان ثريا يملك المال الكثير ولم يكن له ولد يرثه . . فتآمر عليه ابن أخيه فقتله ليلا ثم أخذ الجثة وألقاها فى مكان قريب من إحدى القرى المجاورة ليتهم أهل هذه القرية بقتله . . وصحا أهل القرية ليجدوا جثة القتيل على باب قريتهم . . واتهموا فيه وقالوا لم نقتله . وقال أقارب القتيل بل أنتم الذين قتلتموه . واحتدم الخلاف وذهبوا الى موسى عليه السلام . وقالوا ان الخلاف قد احتدم . . فاسأل لنا ربك أن يكشف لنا عن القاتل . . وجاءت القصة

فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ
بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ
جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ
مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمر بنى اسرائيل أن يذبحوا البقرة ، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة وأخذوا بعضا منها ليضربوا به القتيل . لعادت الحياة اليه ونطق باسم قاتله . . ولكنهم بدلا من أن يستقبلوا أوامر الله سبحانه وتعالى بالتنفيذ . . استقبلوها أولا بعدم التصديق . . و : «قالوا أتتخذنا هزوا» وظلوا يشددون على انفسهم بطلب أوصاف البقرة حتى جاء الايضاح من الحق تبارك وتعالى بعمر البقرة ولونها وكل مايخصها .

وكان لهذا حكمة عند الله سبحانه وتعالى لخدمة قضية ايمانية اخرى . . وقد كان هناك رجل صالح من بنى اسرائيل . . يتحرى الدقة فى كسبه ولا يرضى إلا بالحلال . وكان رجلا يبتغى وجه الله فى كل ما يفعل . . وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هى بقرة صغيرة وكان ابنه طفلا . . واحتار الرجل من يوصى على هذه البقرة التى هى كل ثروته التى تركها لابنه وزوجته . . واتجه الى الله سبحانه وتعالى وقال اللهم انى استودعتك هذه البقرة فاحفظها لابنى حتى يكبر . لأنه لم يجد أمينا على

ابنه إلا يد الله سبحانه وتعالى . ثم قال لزوجته إنى لم أجد يدا آمن من يد ربى استودعته البقرة الصغيرة . . وسألته زوجته أين البقرة ؟ قال أطلقتها فى المراعى . . ثم أسلم الروح . .

وكبر الابن فحكت له أمه ماحدث . فقال الابن وأين اجد البقرة لأستردها ؟ قالت الأم لقد استودع ابوك البقرة عند خالق الكون . فقل انى أتوكل على الله وابحث عنها . فقال الابن اللهم رب ابراهيم ويعقوب رد على ما استودعك أبى . ثم انطلق الى الحقل فوجد البقرة . . وكانت هذه هى البقرة التى ذكرت أوصافها لبنى اسرائيل . . فذهبوا ليشتروها فقال الأبن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا فدفعوا له . .

وهكذا نجد أن صلاح الأب يجعل الله حفيظا على اولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم . وقد أوضح الله تعالى هذه الحقيقة فى سورة الكهف . . عندما جاء العبد الصالح وبنى الجدار ليحفظ كنز يتيمين كان أبوهما صالحا . . واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

(سورة الكهف)

وهكذا كانت الحكمة الإلهية أن الرجل الصالح الذى استودع كل ما كان يملك عند الله . . بارك الله له فيه ووجد ابنه عندما يبلغ سن الشباب ثروة كبيرة .

وعندما ذبحوا البقرة . ضربوا ببعضها القتيل كما أمرهم الله سبحانه وتعالى فإذا به يبعث وينطق اسم قاتله ثم يموت مرة اخرى . . وهكذا سميت السورة باسم سورة البقرة إثباتا لقضية اساسية فى الدين وهى قضية الايمان بالبعث .

وأما بداية القرآن بسورة مدنية بدلا من سورة مكية . . فنقول إنه يجب أن نفهم أولا ما هو مكى وما هو مدنى . فمكة والمدينة مكانان مقدسان . . الأول شهد بداية

النبوة وبداية نزول القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم . . والثانى كان مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعندما نقول مكى ومدنى فى القرآن الكريم ، لابد أن نلاحظ عدة أشياء . . أولا الحدث الذى نزلت من أجله الآية . . وثانيا مكان الحدث وثالثا الزمان الذى نزلت فيه ، فكل فعل له زمن يقع فيه ومكان يحدث فيه . وفاعل.ومن يقع عليه الفعل . . وسبب للحدوث وقدرة على الفعل . .

وبالنسبة لنزول القرآن الكريم . . الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . والذى نزل عليه القرآن هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والمكان هو إما مكة وإما المدينة . . فنزول القرآن الكريم له زمان ومكان وسبب نزول ، والقرآن هو هداية البشر الى منهج الله . . والله سبحانه وتعالى وضع فى القرآن الكريم دستورا سماويا لكل رسالات الله للبشر . . فبنزول القرآن الكريم اكتملت الرسالات السماوية . وجاء الدين الخاتم الذى يظل دستورا للدنيا حتى يوم القيامة . . فجاء القرآن الكريم بقصة خلق السموات والأرض وقصة خلق الانسان . . وجاء بقصص الرسل والأنبياء الذين سبقوا نزول القرآن الكريم وصحح مازيف منها وعدَّل ما حُرف منها لتأتى صادقة فيما أبلغ به الرسل عن الله . وتأتى ناسخة لكل ما عبثت به أيدى البشر فى الرسالات السابقة على نزول القرآن . . وتأتى مصحِّحة لكل كلام بشرىّ أضيف الى منهج الله ونسب اليه زورا وبهتانا . . وتأتى بما كتمه أهل الديانات القديمة وأحبار اليهود ورهبان النصارى عن الناس . .

إنه يفضح كل تحريف أو كتم أو اخفاء أو تزييف أو اضافة بشرية لدين الله فى الرسالات السابقة . ويزيد عليه من منهج الله ليصبح القرآن الكريم المنهج الكامل المتكامل لعبادة الله فى الأرض . . ويتضمن منهج السماء منذ عهد آدم الى قيام الساعة .

ولقد اختلف العلماء حول بعض الآيات وهل هى مكية أومدنية .

فالذين أخذوا بعنصر الزمان مقياسا قالوا إن كل سورة من القرآن الكريم نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة تعتبر مدنية . . حتى ولو نزلت فى مكة . . والذين اتخذوا مقياس المكان قالوا ان كل سورة نزلت فى مكة فهى مكية ، وكل سورة نزلت فى المدينة فهى مدنية ، وذلك بصرف النظر عن أنها نزلت قبل الهجرة أو بعدها . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه سور فى مكة بعد الهجرة .

ونحن نقول إنه لاخلاف بين علماء المسلمين كما حاول البعض أن يصوره . بل ان كل فريق أخذ الموضوع من زاوية معينة . . بعضهم نظر الى زاوية المكان ، وبعضهم نظر الى زاوية الزمان . ولم يختلف العلماء فى سور القرآن الكريم ذاته أو آياته .

عندما ننظر الى سورة البقرة نجد أنها من أوائل السور التى نزلت بالمدينة . . ففيها الطابع المدنى والطابع المكى . . الطابع المكى فى سور القرآن الكريم هو التركيز على العقيدة . . ذلك أن الآيات والسور المكية نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه الوثنيين عبدة الأصنام ، والكفار الذين لا يؤمنون بدين وعدداً من أهل الكتاب الذين ضعفت صلتهم بالسماء لأنهم نسوا ما قاله رسلهم فحرفوه . . وكان لابد للقرآن أن يواجه هؤلاء جميعا ويبين لهم أنهم على باطل وأنهم يعبدون الهة لاتنفع ولاتضر . . بل آلهة مصنوعة من أدنى أجناس الأرض وهى الحجارة . . بينما الله سبحانه وتعالى ميز الانسان وجعله خليفة فى هذا الكون .

وكان لابد للقرآن ان يخبرهم أن هناك بعثا بعد الموت . . وأن هناك جنة وناراً وان الحياة الحقيقية ليست الدنيا ولكنها الآخرة . . وكان لابد أن يحذرهم من عذاب الله . ومن يوم سيلقونه فيه ولايستطيع أحد منهم هربا من ذلك اليوم العظيم . . وكان لابد أن يلفتهم الى آيات الله فى الكون الدالة على أنه الموجد والخالق . . وأن يواجه ما يأتى به أحبار اليهود من أسئلة ظاهرها الاستفهام ، وحقيقتها محاولة الطعن فى الاسلام .

وكانوا يظنون أنه ربما يأتى محمد عليه الصلاة والسلام بشىء من عنده فيخطىء . . فجاء القرآن ليساوى بين البشرية كلها . . فلا فضل لغنى لماله ولاقلة لفقير فى الأجر . . بل الناس امام الله سواسية كأسنان المشط .

كان هذا هو اساس الدعوة فى مكة . . ايمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وتثبيت للمؤمنين فى الفترة التى كانوا فيها قلة وكانوا فيها ضعفاء وكانوا أذلة .

وتثبيت الايمان كان يقتضى تذكيرهم دائما بأن الله معهم . . وإن ماتوا شهداء دخلوا الجنة بلا حساب . وإن ماتوا على دين الاسلام دخلوا الجنة . ومن يبقى منهم على كفره عُذب فى النار ، وأن كل مشقة فى سبيل الله لها أجر فى الآخرة حتى يتحملوا المشقة والإيذاء وهم صابرون .

واذا انتقلنا بعد ذلك الى مجتمع المدينة . . فهناك صورة أخرى ووجه فيها الاسلام بالكفار وعبدة الاوثان ومزورى التوراة من اليهود وعدو جديد هم المنافقون . . وقد كانت هناك عداوة جاهلة فى مكة ، أما فى المدينة فقد ووجه الاسلام بعداوة عالمة .. وهم المنافقون . . فلم يكن هناك نفاق فى مكة ، فالضعيف والمضْطَهَدُ لا يُنافق . . فمنذا الذى كان يدعى فى مكة أنه مؤمن وهو كافر . . ليكون عرضة للعذاب والإيذاء والاضطهاد . ولكن فى المدينة عندما قوى الاسلام وكانت له دولة ظهر فى المجتمع النفاق . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة عداوة من لون جديد . . ليخوض صراعا مع المنافقين واليهود . . وبجانب التوحيد والرد على المنافقين واليهود كان هناك المجتمع الاسلامى . . وكانت هناك مهمة تربية هذا المجتمع لكى ينهض بالدعوة ، وكانت هناك دولة وكانت هناك غزوات ، وكان هناك أحكام بافعل ولاتفعل .

كل هذا لم يكن موجودا فى مكة ، فقد اقتضى نزول القرآن الكريم فى مكة أن تكون آياته فى معظمها عن العقيدة وعن الجنة والنار ، وعن الأجر الذى ينتظر المؤمنين فى الآخرة ، وعن العذاب الذى ينتظر الكفار .

وكانت الآيات فى المدينة عن الأحكام والمجتمع الاسلامى والمعاملات وكيفية اتقاء المنافقين . وان كانت الآيات فى المدينة لم تهمل العقيدة بل أكدتها . . وعندما جاء جبريل عليه السلام ليرتب المصحف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الترتيب الذى نعرفه الآن . . كان الاسلام قد انتشر واعتنقه كثيرون . لذلك كانت المهمة الأولى أن يعرف هؤلاء المسلمون أحكام دينهم . . وما يجب أن يفعلوه وألا يفعلوه .

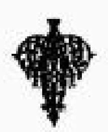
يريد الله سبحانه وتعالى أن يعلم المسلمين الذين آمنوا بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . يريد أن يعلمهم أحكام دينهم . فالعقيدة موجودة وبقى أن نعمل ونطبق المنهج فى إفعل ولا تفعل .

ولقد جاءت سورة البقرة متضمنة التعريف بقوة الاسلام .. وبحكمة القرآن وبعلم الله سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، واشتملت على قصة خلق الانسان الأول آدم عليه السلام . وقصة ابراهيم فى بحثه عن الايمان وقصة بناء الكعبة الشريفة .. وركزت على اليهود باعتبارهم أشد الناس عداوة للاسلام .. واقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

جاءت سورة البقرة ببعض التكاليف الايمانية .. فتحدثت عن الصوم والحج والخمر والربا وأكل اموال الناس والزواج والطلاق والرضاع .. كما حددت صور التعامل بالمال فى المجتمع الاسلامى .. وما كان الاسلام ليتعرض لهذه الأحكام فى مكة .. لأنه لم يكن هناك المجتمع الاسلامى الذى يتطلبها .





﴿ الم ۝١ ﴾

بدأت سورة البقرة بقوله تعالى : «الم» . . وهذه الحروف حروف مقطعة . . ومعنى مقطعة أن كل حرف ينطق بمفرده . لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات . . فالناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه . . فعندما تقول كتب تنطق بمسميات الحروف . فاذا أردت أن تنطق باسمائها . تقول كاف وتاء وباء . . ولايمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم ودرس ، أما ذلك الذى لم يتعلم فقد ينطق بمسميات الحروف ولكنه لاينطق بأسمائها ، ولعل هذه أول ما يلفتنا . فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولذلك لم يكن يعرف شيئا عن أسماء الحروف . فإذا جاء ونطق بأسماء الحروف يكون هذا إعجازاً من الله سبحانه وتعالى . . بأن هذا القرآن موحى به الى محمد صلى الله عليه وسلم . . ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم درس وتعلم لكان شيئا عاديا أن ينطق باسماء الحروف . ولكن تعالَ الى أى أمى لم يتعلم . . انه يستطيع أن ينطق بمسميات الحروف . . يقول الكتاب وكوب وغير ذلك . . فاذا طلبت منه أن ينطق باسماء الحروف فانه لايستطيع أن يقول لك . ان كلمة كتاب مكونة من الكاف والتاء والألف والباء . . وتكون هذه الحروف دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن ربه . وأن هذا القرآن موحى به من الله سبحانه وتعالى .

ونجد فى فواتح السور التى تبدأ باسماء الحروف . تنطق الحروف بأسمائها وتجد الكلمة نفسها فىآية أخرى تنطق بمسمياتها .فالم فى أول سورة البقرة نطقتها باسماء الحروف الف لام ميم . بينما تنطقها بمسميات الحروف فى شرح السورة فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾

(سورة الشرح)

وفى سورة الفيل فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾

(سورة الفيل)

ما الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ينطق «ألم» فى سورة البقرة بأسماء الحروف .. وينطقها فى سورتى الشرح والفيل بمسميات الحروف . لابد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سمعها من الله كما نقلها جبريل عليه السلام اليه هكذا . اذن فالقرآن أصله السماع لا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه . لتعرف أن هذه تُقرأ ألف لام ميم والثانية تقرأ ألم .. مع أن الكتابة واحدة فى الاثنين .. ولذلك لابد أن تستمع الى فقيه يقرأ القرآن قبل أن تتلوه .. والذى يتعب الناس أنهم لم يجلسوا الى فقيه ولا استمعوا الى قارىء .. ثم بعد ذلك يريدون أن يقرأوا القرآن كأى كتاب . نقول لا .. القرآن له تميز خاص .. انه ليس كأى كتاب تقرؤه .. لأنه مرة يأتى باسم الحرف . ومرة يأتى بمسميات الحرف . وأنت لايمكن ان تعرف هذا إلا إذا استمعت لقارىء يقرأ القرآن .

والقرآن مبنى على الوصل دائما وليس على الوقف ، فاذا قرآت فى آخر سورة يونس مثلا : «وهو خير الحاكمين» لاتجد النون عليها سكون بل تجد عليها فتحة ، موصولة بقول الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم . ولو كانت غير موصولة لوجدت عليها سكونا .

اذن فكل آيات القرآن الكريم مبنية على الوصل .. ما عدا فواتح السور المكونة من حروف فهى مبنية على الوقف .. فلا تقرأ فى أول سورة البقرة : «ألم» والميم عليها ضمة . بل تقرأ ألفا عليها سكون ولاما عليها سكون وميما عليها سكون . اذن كل حرف منفرد بوقف . مع أن الوقف لايوجد فى ختام السور ولا فى القرآن الكريم كله .

وهناك سور فى القرآن الكريم بدأت بحرف واحد مثل قوله تعالى :

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾

(سورة ص)

﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾

(سورة القلم)

ونلاحظ أن الحرف ليس آية مستقلة . بينما «ألم» فى سورة البقرة آية مستقلة . و : «حم» . و : «عسق» آية مستقلة مع أنها كلها حروف مقطعة . وهناك سور تبدأ بآية من خمسة حروف مثل «كهيعص» فى سورة مريم . . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف . مثل «ألمص» فى سورة «الأعراف» . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف وهى ليست آية مستقلة مثل «ألمر» فى سورة «الرعد» متصلة بما بعدها . . بينما نجد سورة تبدأ بحرفين هما آية مستقلة مثل : «يس» فى سورة يس . و«حم» فى سورة غافر وفصلت . . و : «طس» فى سورة النمل . وكلها ليست موصولة بالآية التى بعدها . . وهذا يدلنا على أن الحروف فى فواتح السور لا تسير على قاعدة محددة .

«ألم» مكونة من ثلاثة حروف تجدها فى ست سور مستقلة . . فهى آية فى البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم والسجدة ولقمان . و«الر» ثلاثة حروف ولكنها ليست آية مستقلة . . بل جزء من الآية فى أربع سور هى : يونس ويوسف وهود وابراهيم . . و : «ألمص» من أربعة حروف وهى آية مستقلة فى سورة «الأعراف» و«المر» أربعة حروف ، ولكنها ليست آية مستقلة فى سورة الرعد إذن فالمسألة ليست قانونا يعمم ، ولكنها خصوصية فى كل حرب من الحروف

واذا سألت ما هو معنى هذه الحروف ؟ . . نقول أن السؤال فى أصله خطأ . . لأن الحرف لا يسأل عن معناه فى اللغة إلا إن كان حرف معنى . . والحروف نوعان : حرف مَبْنَى وحرف معنى . حرف المبنى لا معنى له إلا للدلالة على الصوت فقط . . أما حروف المعانى فهى مثل فى . ومن . . وعلى . . (فى) تدل على الظرفية . . و(مِنْ) تدل على الابتداء و(الى) تدل على الانتهاء . . و(على) تدل على الاستعلاء . . هذه كلها حروف معنى .

واذا كانت الحروف فى أوائل السور فى القرآن الكريم قد خرجت عن قاعدة الوصل لأنها مبنية على السكون لابد أن يكون لذلك حكمة . . أولا لنعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حَسَنَةٌ والحَسَنَةُ

بعَشْرِ أمْثالها ، لا أقولُ الم حرف ولكن ألفٌ حرْفٌ ولَامٌ حرف ومِيمٌ حرف»[1] .

ولذلك ذكرت فى القرآن كحروف استقلالية لنعرف ونحن نتعبد بتلاوة القرآن الكريم أننا نأخذ حسنة على كل حرف . فإذا قرأنا بسم الله الرحمن الرحيم . يكون لنا بالباء حسنة وبالسين حسنة وبالميم حسنة فيكون لنا ثلاث حسنات بكلمة واحدة من القرآن الكريم . والحسنة بعشر أمثالها . وحينما نقرأ «ألم» ونحن لا نفهم معناها نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرؤه سواء فهمناه أم لم نفهمه . . وقد يضع الله سبحانه وتعالى من أسراره فى هذه الحروف التى لانفهمها ثوابا وأجرا لانعرفه .

ويريدنا بقراءتها أن نحصل على هذا الأجر . .

والقرآن الكريم ليس اعجازا فى البلاغة فقط . ولكنه يحوى اعجازا فى كل ما يمكن للعقل البشرى أن يحوم حوله . فكل مفكر متدبر فى كلام الله يجد اعجازا فى القرآن الكريم . فالذى درس البلاغة رأى الاعجاز البلاغى ، والذى تعلم الطب وجد إعجازا طبيا فى القرآن الكريم . وعالم النباتات رأى اعجازا فى آيات القرآن الكريم ، وكذلك عالم الفلك . .

واذا أراد انسان منا أن يعرف معنى هذه الحروف فلا نأخذها على قدر بشريتنا . . ولكن نأخذها على قدر مراد الله فيها . . وقدراتنا تتفاوت وأفهامنا قاصرة . فكل منا يملك مِفْتاحاً من مفاتيح الفهم كل على قدر علمه . . هذا مفتاح بسيط يفتح مرة واحدة وآخر يدور مرتين . . وآخر يدور ثلاث مرات وهكذا . . ولكن من عنده العلم يملك كل المفاتيح ، أو يملك المفتاح الذى يفتح كل الأبواب . .

ونحن لايصح أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف . فحياة البشر تقتضى منا فى بعض الأحيان أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا . . وان كانت تمثل اشياء ضرورية بالنسبة لنا . تماما ككلمة السر التى تستخدمها الجيوش لا معنى لها اذا سمعتها . ولكن بالنسبة لمن وضعها يكون ثمنها الحياة أو الموت . . فخذ كلمات الله التى تفهمها بمعانيها . . وخذ الحروف التى لاتفهمها بمرادات الله فيها . فالله سبحانه وتعالى شاء أن يبقى معناها فى الغيب عنده .

(١) رواه الترمذى فى أبواب فضائل القرآن .

والقرآن الكريم لا يؤخذ على نسق واحد حتى نتنبه ونحن نتلوه أو نكتبه . لذلك تجد مثلا بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة بدون ألف بين الباء والسين . ومرة تجدها مكتوبة بالألف فى قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① ﴾

(سورة العلق)

وكلمة تبارك مرة تكتب بالألف ومرة بغير الألف . . ولو أن المسألة رتابة فى كتابة القرآن لجاءت كلها على نظام واحد . ولكنها جاءت بهذه الطريقة لتكون كتابة القرآن معجزة وألفاظه معجزة .

ونحن نقول للذين يتساءلون عن الحكمة فى بداية بعض السور بحروف . . نقول إن لذلك حكمة عند الله فهمناها أو لم نفهمها . . والقرآن نزل على أمة عربية فيها المؤمن والكافر . . ومع ذلك لم نسمع أحداً يطعن فى الأحرف التى بدأت بها السور . وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم العربية . . ولو أنهم لم يفهموها لطعنوا فيها .

وأنا انصح من يقرأ القرآن الكريم للتعبد .. ألا يشغل نفسه بالتفكير فى المعنى . أما الذى يقرأ القرآن ليستنبط منه فليقف عند اللفظ والمعنى . . فاذا قرأت القرآن لتتعبد فاقرأه بسر الله فيه . . ولو جلست تبحث عن المعنى . . تكون قد حددت معنى القرآن الكريم بمعلوماتك أنت . وتكون قد أخذت المعنى ناقصا نقص فكر البشر . . ولكن اقرأ القرآن بسر الله فيه .

إننا لو بحثنا معنى كل لفظ فى القرآن الكريم فقد أخرجنا الأمى وكل من لم يدرس اللغة العربية دراسة متعمقة من قراءة القرآن . ولكنك تجد أميا لم يقرأ كلمة واحدة ومع ذلك يحفظ القرآن كله . فاذا قلت كيف ؟ نقول لك بسر الله فيه .

والكلام وسيلة افهام وفهم بين المتكلم والسامع . المتكلم هو الذى بيده البداية ، والسامع يفاجأ بالكلام لأنه لا يعلم مقدما ماذا سيقول المتكلم . . وقد يكون ذهن السامع مشغولا بشىء آخر . . فلا يستوعب أول الكلمات . . ولذلك قد تنبهه بحروف أو بأصوات لا مهمة لها إلا التنبية للكلام الذى سيأتى بعدها .

وإذا كنا لانفهم هذه الحروف . فوسائل الفهم والاعجاز فى القرآن الكريم لاتنتهى ، لأن القرآن كلام الله . والكلام صفة من صفات المتكلم . . ولذلك لايستطيع فهم بشرى أن يصل الى منتهى معانى القرآن الكريم ، إنما يتقرب منها . لأن كلام الله صفة من صفاته . . وصفة فيها كمال بلا نهاية .

فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى للقرآن الكريم . . فإنك تكون قد حددت معنى كلام الله بعلمك . . ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازا لك . حتى تعرف إنك لاتستطيع أن تحدد معانى القرآن بعلمك . .

ان عدم فهم الانسان لاشياء لايمنع انتفاعه بها . . فالريفى مثلا ينتفع بالكهرباء والتليفزيون وما يذاع بالقمر الصناعى وهو لايعرف عن أى منها شيئا . فلماذا لايكون الله تبارك وتعالى قد أعطانا هذه الحروف نأخذ فائدتها ونستفيد من اسرارها ويتنزل الله بها علينا بما أودع فيها من فضل سواء أفهم العبد المؤمن معنى هذه الحروف أو لم يفهمها .

وعطاء الله سبحانه وتعالى وحكمته فوق قدرة فهم البشر . . ولو أراد الانسان أن يحوم بفكره وخواطره حول معانى هذه الحروف لوجد فيها كل يوم شيئا جديدا.لقد خاض العلماء فى البحث كثيرا . . وكل عالم أخذ منها على قدر صفائه ، ولايدعى أحد العلماء أن ذلك هو الحق المراد من هذه الحروف . . بل كل منهم يقول والله أعلم بمراده . ولذلك نجد عالما يقول (ألر) و(حم) و(ن) وهى حروف من فواتح السور تكون اسم الرحمن . . نقول إن هذا لايمكن ان يمثل فهما عاما لحروف بداية بعض سور القرآن . . ولكن ما الذى يتعبكم أو يرهقكم فى محاولة ايجاد معان لهذه الحروف ؟! . .

لو أن الله سبحانه وتعالى الذى أنزل القرآن يريد أن يفهمنا معانيها . . لأوردها بمعنى مباشر أو أوضح لنا المعنى . فمثلا أحد العلماء يقول إن معنى (ألم) هو أنا الله اسمع وأرى . . نقول لهذا العالم لو أن الله أراد ذلك فما المانع من أن يورده بشكل مباشر لنفهمه جميعا . . لابد أن يكون هناك سر فى هذه الحروف . . وهذا السر هو من أسرار الله التى يريدنا أن ننتفع بقراءتها دون أن نفهمها . .

ولابد أن نعرف أنه كما أن للبصر حدوداً . وللأذن حدوداً وللمس والشم والتذوق حدوداً ، فكذلك عقل الانسان له حدود يتسع لها فى المعرفة . . وحدود فوق قدرات

العقل لايصل اليها .

والانسان حينما يقرأ القرآن والحروف الموجودة فى أوائل بعض السور يقول إن هذا امر خارج عن قدرة عقل . . وليس ذلك حجراً أو سَدّاً لباب اجتهاد . . لأننا إن لم ندرك فإن علينا أن نعترف بحدود قدراتنا أمام قدرات خالقنا سبحانه وتعالى التى هى بلا حدود .

وفى الايمان هناك ما يمكن فهمه وما لايمكن فهمه . . فتحريم أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لانتظر حتى نعرف حكمته لنمتنع عنه . ولكننا نمتنع عنه بإيمان أنه مادام الله قد حرمه فقد أصبح حراما .
ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما عرفتم من محكمه فاعملوا به ، وما لم تدركوا فآمنوا به»[1] .
والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة ال عمران)

اذن فعدم فهمنا للمتشابه لايمنع أن نستفيد من سر وضعه الله فى كتابه . . ونحن نستفيد من أسرار الله فى كتابه فهمناها أم لم نفهمها .

---

(١) (الطبقات الكبرى لابن سعد) .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾

فى الآية الثانية من سورة البقرة وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه الكتاب . وكلمة (قرآن) معناها أنه يُقرأ ، وكلمة (كتاب) معناها أنه لايحفظ فقط فى الصدور ، ولكن يُدوّن فى السطور ، ويبقى محفوظاً الى يوم القيامة ، والقول بأنه الكتاب ، تمييز له عن كل كتب الدنيا ، وتمييز له عن كل الكتب السماوية التى نزلت قبل ذلك ، فالقرآن هو الكتاب الجامع لكل احكام السماء ، منذ بداية الرسالات حتى يوم القيامة ، وهذا تأكيد لارتفاع شأن القرآن وتفرده وسماويته ودليل على وحدانية الخالق ، فمنذ فجر التاريخ ، نزلت على الأمم السابقة كتب تحمل منهج السماء ، ولكن كل كتاب وكل رسالة نزلت موقوتة ، فى زمانها ومكانها ، تؤدى مهمتها لفترة محددة وتجاه قوم محدَّدين .

فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه ، وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام . . كل هذه رسالات كان لها وقت محدود ، تمارس مهمتها فى الحياة ، حتى يأتى الكتاب وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك بُشر فى الكتب السماوية التى نزلت قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام بأن هناك رسولا سيأتى ، وأنه يحمل الرسالة الخاتمة للعالم ، وعلى كل الذين يصدقون بمنهج السماء أن يتبعوه . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الاعراف)

والقرآن هو الكتاب ، لأنه لن يصل اليه أى تحريف أو تبديل ، فرسالات السماء السابقة ائتمن الله البشر عليها ، فنسوا بعضها ، ومالم ينسوه حرفوه ، وأضافوا اليه

من كلام البشر ، مانسبوه الى الله سبحانه وتعالى ظلما وبهتانا ، ولكن القرآن الكريم محفوظ من الخالق الاعلى ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ومعنى ذلك ألا يرتاب انسان فى هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله الى قيام الساعة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

يقول الحق جل جلاله : «لا ريب فيه هدى للمتقين» .

والإعجاز الموجود فى القرآن الكريم هو فى الأسلوب وفى حقائق القرآن وفى الآيات وفيها رُوِىَ لنا من قصص الأنبياء السابقين ، وفيها صحح من التوراة والانجيل ، وفيها أتى به من علم لم تكن تعلمه البشرية ولازالت حتى الآن لا تعلمه ، كل ذلك يجعل القرآن لاريب فيه ، لأنه لو اجتمعت الإنس والجن ما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن ، ولذلك كلما تأملنا فى القرآن وفى أسلوبه ، وجدنا أنه بحق لاريب فيه ، لأنه لا أحد يستطيع أن يأتى بآية ، فما بالك بقرآن .

فهذا الكتاب ارتفع فوق كل الكتب ، وفوق مدارك البشر ، يوضح آيات الكون ، وآيات المنهج ، وله فى كل عصر معجزات . إن كلمة الكتاب التى وصف الله سبحانه وتعالى بها القرآن تمييزا له عن كل الكتب السابقة ، تلفتنا الى معان كثيرة ، تحدد لنا بعض أساسيات المنهج التى جاء هذا الكتاب ليبلغنا بها . وأول هذه الأساسيات ، أن نزول هذا الكتاب ، يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالى . واقرأ فى سورة الكهف :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويلفت الله سبحانه وتعالى عبادة الى أن إنزاله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم يستوجب الحمد من البشر جميعا ، لأن فيه منهج السماء ، وفيه الرحمة من الله لعباده ، وفيه البشارة بالجنة والطريق اليها ، وفيه التحذير من النار وما يقود اليها ، وهذا التحذير أو الإنذار هو رحمة من الله تعالى لخلقه . لأنه لو لم ينذرهم لفعلوا ما يستوجب العذاب ، ويجعلهم يخلدون فى عذاب اليم . ولكن الكتاب الذى جاء ليلفتهم الى ما يغضب الله ، حتى يتجنبوه ، إنما جاء برحمة تستوجب الحمد ، لأنها أرتنا جميعاً ، الطريق الى النجاة من النار ، ولو لم ينزل الله سبحانه وتعالى الكتاب ، ما عرف الناس المنهج الذى يقودهم الى الجنة ، وما استحق احد منهم رضا الله ونعيمه فى الآخرة .

وفى سورة الكهف ، نجد تأكيداً آخر . . ان كتاب الله ، وهو القرآن الكريم لن يستطيع بشر أن يبدل منه كلمة واحدة ، واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويبين الله سبحانه وتعالى لنا ان هذا الكتاب ، جاء لنفع الناس ، ولنفع العباد ، وأن الله ليس محتاجاً لخلقه ، فهو قادر على أن يقهر من يشاء على الطاعة ، ولايمكن لخلق من خلق الله أن يخرج فى كون الله عن مرادات الله ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويأتى الله سبحانه وتعالى بالقسم الذى يلفتنا الى أن كل كلمة فى القرآن هى من

عند الله ، كما ابلغها جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم فى قوله سبحانه :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾
فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى ذلك الكتاب الذى هو منهج للانسان على الأرض ، فبعد أن بين لنا جل جلاله ، بمالايدع مجالا للشك أن الكتاب منزل من عنده ، وأنه يصحح الكتب السابقة كالتوراة ، والانجيل والتى أئتمن الله عليها البشر ، فحرفوها وبدلوها ، وهذا التحريف أبطل مهمة المنهج الإلهى بالنسبة لهذه الكتب ، فجاء الكتاب الذى لم يصل اليه تحريف ولاتبديل ، ليبقى منهجاً لله ، الى ان تقوم الساعة . أول ما جاء به هذا الكتب هو إيمان القمة ، بأنه لا إله إلا الله الواحد الأحد . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف ان الكتاب نزل ليؤكد لنا ، ان الله واحد أحد ، لاشريك له ، وأن القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السماوية من توراة وانجيل ، وغيرها من الكتب .

فالقرآن نزل ليفرق بين الحق الذى جاءت به الكتب السابقة ،وبين الباطل الذى أضافه أولئك الذين ائتمنوا عليها .

ثم يجدد الحق تبارك وتعالى لنا مهمتنا فى أن هذا الكتاب مطلوب أن نبلغه للناس جميعاً ، واقرأ قوله سبحانه :

﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم ، يتضمن خطابا لأمته جميعاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كلف بأن يبلغ الكتاب للناس ، ونحن مكلفون بأن نتبع المنهج نفسه ونبلغ ما جاء فى القرآن للناس حتى يكون الحساب عدلا ، وأنهم قد بلغوا منهج الله ، ثم كفروا به أو تركوه ، اذن فإبلاغ الكتاب من المهمات الأساسية التى حددها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن .

والكتاب فيه رد على حجج الكفار وأباطيلهم.واقرأ قول الله تبارك وتعالى :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝ ﴾

(سورة يونس)

وفى هذه الآيات الكريمة : يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقتين . . الحقيقة الأولى هى أن الكفار يتخذون من بشرية الرسول حُجة بأن هذا الكتاب ليس من عند الله . وكان الرد هو : أن كل الرسل السابقين كانوا بشراً ، فما هو العجب فى أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً بشراً . واللفتة الثانية هى ان هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التى خلقها الله لنا لنكتب بها ، ومع ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدماً لهذه الحروف التى يعرفها الناس جميعاً ، معجزاً فى ألا يستطيع

الانس والجن ، مجتمعين أن يأتوا بسورة واحدة منه . ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى لفتة اخرى الى أن هذا الكتاب محكم الآيات ، ثم بينه الله لعباده ، واقرأ قوله جل جلاله فى سورة هود :

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ ﴾

(سورة هود)

هذه هى بعض الآيات فى القرآن الكريم ، التى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا فيها الى معنى الكتاب ، فآياته من عند الله الحكيم الخبير ، وكل آية فيها اعجاز مُتحدًى به الإنس والجن ، وهذا الكتاب لابد أن يبلغ للناس جميعاً ، فالكتاب ينذرهم ألا يعبدوا إلا الله ، ليكون الحساب عدلا فى الآخرة ، فمن أنذر وأطاع كان له الجنة ، ومن عصى كانت له النار والعياذ بالله .

ثم يلفتنا الله الى ان هذا الكتاب فيه قصص الأنبياء السابقين منذ آدم عليه السلام ، يقول جل جلاله :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾

(سورة يوسف)

وهكذا نجد أن القرآن الكريم ، قد جاء ليقص علينا أحسن القصص بالنسبة للأنبياء السابقين ، والأحداث التى وقعت فى الماضى ، ولم يأت القرآن بهذه القصص للتسلية أو للترفيه ، وانما جاء بها للموعظة ولتكون عبرة ايمانية ، ذلك أن القصص القرآنى يتكرر فى كل زمان ومكان . ففرعون هو كل حاكم طغى فى الأرض ، ونصب نفسه إلها ، وقارون هو كل من أنعم الله عليه فنسب النعمة الى نفسه ، وتكبر وعصى

الله ، وقصة يوسف هى قصة كل اخوة حقدوا على أخ لهم ، وتآمروا عليه ، وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم ، فنشر الله لهم من رحمته فى الدنيا والآخرة ، ماعدا قصة واحدة هى قصة مريم وعيسى عليهما السلام ، فهى معجزة لن تتكرر ولذلك عرف الله سبحانه وتعالى ابطالها ، فقال عيسى بن مريم وقال مريم ابنة عمران .

والكتاب الذى أنزله الله سبحانه وتعالى فيه لفتة الى آيات الله فى كونه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾

(سورة الرعد)

وهكذا بين لنا الله فى الكتاب آياته فى الكون ولفتنا اليها ، فالسماء مرفوعة بغير عمد نراها ، والشمس والقمر مسخران لخدمة الانسان ، وهذه كلها آيات لايستطيع أحد من خلق الله أن يدعيها لنفسه أو لغيره ، فلا يوجد حتى يوم القيامة من يستطيع ان يدعي انه رفع السماء بغير عمد ، أو أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما لخدمة الانسان . ولو تدبر الناس فى آيات الكون لآمنوا ولكنهم فى غفلة عن هذه الآيات . ثم يحدد الحق سبحانه وتعالى مهمة هذا الكتاب وكيف أنه رحمة للناس جميعاً ، فيقول جل جلاله :

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ﴾

(سورة ابراهيم)

أى أن مهمة هذا الكتاب هى أن يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك الى نور الايمان ، لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يبصرها ، ويعرف أن هناك حساباً وآخرة ولكنه ينكرهما ، ولايرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة فى كل شىء ، فى العمر والرزق والمتعة ، ولوتطلع الى نور الايمان ، لرأى الآخرة وما فيها من نعيم أبدي ولَعَمِلَ من أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لايرى . . والطريقُ لأن يرى هو هذا الكتاب ، القرآن الكريم لأنه يخرج الناس إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر الى نور الحقيقة واليقين . ويبن الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلتفتون الى الدنيا وحدها ، هم كالأنعام التى تأكل وتشرب ، بل ان الانعام افضل منهم ، لأن الانعام تقوم بمهمتها فى الحياة ، بينما هم لايقومون بمهمة العبادة ، فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ① رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ② ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ ﴾

(سورة الحجر)

هكذا يخبرنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتمنى ، ولكن لابد أن يعمل بها ، وأن الذين كفروا فى تمتعهم بالحياة الدنيا لايرتفعون فوق مرتبة الأنعام ، وأنهم يتعلقون بأمل كاذب فى أن النعيم فى الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون .

وهكذا بعد أن تعرضنا بإيجاز لبعض الآيات التى ورد فيها ذكر الكتاب انه كتاب يبصرنا بقضية القمة فى العقيدة وهى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهو بهذا يخرج الناس من الظلمات الى النور .

وأن يلفتهم الى آيات الكون . . وأن يعرفوا أن هناك آخرة ونعيماً أبدياً وشقاء أبدياً ، وأن يقيم الدليل والحجة على الكافرين ، وأن قوله تعالى : «ذلكَ الكتاب» يحمل معنى التفوق الكامل الشامل على كل ما سبقه من كتب . وأنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة ولذلك وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه «كتاب» ليكون دليلا على الكمال .



ولابد أن نعرف أن ذلك ليست كلمة واحدة . . وانما هى ثلاث كلمات . .«ذا» اسم اشارة . . «واللام» تدل على الابتعاد ورفعة شأن القرآن الكريم ، و«ك» لمخاطبة الناس جميعا بأن القرآن الكريم له عمومية الرسالة الى يوم القيامة .

ونحن عندما نقرأ سورة البقرة نستطيع أن نقرأ آيتها الثانية بطريقتين . . الطريقة الأولى أن نقول «ألم ذلك الكتاب لاريب فيه» ثم نصمت قليلا ونضيف : «هدى للمتقين» والطريقة الثانية أن نقول : «ألم ذلك الكتاب لاريب» ثم نصمت قليلا ونضيف : فيه هدى للمتقين» وكلتا الطريقتين توضح لنا معنى لاريب أى لاشك . . أو نفى للشك وجزم مطلق أنه كتاب حكيم منزل من الخالق الأعلى . وحتى نفهم المنطلق الذى نأخذ منه قضايا الدين ، والتى سيكون دستورنا فى الحياة ، فلابد ان نعرف ما هو الهدى ومن هم المتقون ؟ الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك الى ما تطلبه . فالاشارات التى تدل المسافر على الطريق هى هدى له لانها تبين له الطريق الذى يوصله الى المكان الذى يقصده . . والهدى يتطلب هاديا ومهديا وغاية تريد أن تحققه . فاذا لم يكن هناك غاية أو هدف فلا معنى لوجود الهدى لأنك لاتريد أن تصل الى شيء . . وبالتالى لاتريد من أحد أن يدلك على طريق .

إذن لابد أن نوجد الغاية أولا ثم نبحث عمن يوصلنا اليها .

وهنا نتساءل من الذى يحدد الهدف ويحدد لك الطريق للوصول اليه ؟ اذا اخذنا بواقع حياة الناس فإن الذى يحدد لك الهدف لابد أن تكون واثقا من حكمته . . والذى يحدد لك الطريق لابد أن يكون له من العلم مايستطيع به أن يدلك على أقصر الطرق لتصل الى ماتريد .

فاذا نظرنا الى الناس فى الدنيا نجد أنهم يحددون مطلوبات حياتهم ويحددون الطريق الذى يحقق هذه المطلوبات . . فالذى يريد أن يبنى بيتا مثلا يأتى بمهندس يضع له الرسم ، ولكن الرسم قد يكون قاصرا على أن يحقق الغاية المطلوبة فيظل يغير ويبدل فيه . ثم يأتى مهندس على مستوى أعلى فيضع تصوراً جديداً للمسألة كلها . . وهكذا يكون الهدف متغيرا وليس ثابتا .

وعند التنفيذ قد لاتوجد المواد المطلوبة فنغير ونبدل لنأتى بغيرها ثم فوق ذلك كله قد تأتى قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه . إذن فأهداف الناس متغيرة تحكمها ظروف

حياتهم وقدراتهم : . والغايات التى يطلبونها لاتتحقق لقصور علم البشر وامكاناته .
اذن فكلنا محتاجون الى كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طرق حياتنا . . وأن يكون قادرا على كل شيء ، ومالكا لكل شيء ، والكون خاضعا لارادته حتى نعرف يقينا أن ما نريده سيتحقق ، وأن الطريق الذى سنسلكه سيوصلنا الى ما نريده . وينبهنا الله سبحانه وتعالى الى هذه القضية فيقول :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ان الله يريد أن يلفت خلقه الى انهم إذا أرادوا أن يصلوا الى الهدف الثابت الذى لا يتغير فليأخذوه عن الله . وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق الذى لاتوجد فيه أى عقبات أو متغيرات . . فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى . . إنك اذا اردت باقيا . . فخذ من الباقى ، واذا أردت ثابتا . . فخذ من الثابت . ولذلك كانت قوانين البشر فى تحديد أهدافهم فى الحياة وطريقة الوصول اليها قاصرة . . علمت أشياء وغابت عنها أشياء . . ومن هنا فهى تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان .

ذلك أن من وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يحققه ، ولكن الله جل جلاله لا هوى له . . فإذا أردت أن تحقق سعادة فى حياتك ، وأن تعيش آمنا مطمئنا . . فخذ الهدف عن الله ، وخذ الطريق عن الله . فإن ذلك ينجيك من قلق متغيرات الحياة التى تتغير وتتبدل . والله قد حدد لخلقه ولكل ما فى كونه أقصر طريق لبلوغ الكون سعادته . والذين لا يأخذون هذا الطريق يتعبون أنفسهم ويتعبون مجتمعهم ولا يحققون شيئا .

اذن فالهدف يحققه الله لك ، والطريق يبينه الله لك . . وما عليك إلا أن تجعل مراداتك فى الحياة خاضعة لما يريده الله .

ويقول الله سبحانه وتعالى : «هدى للمتقين» . . مامعنى المتقين ؟ متقين جمع متق . والاتقاء من الوقاية . . والوقاية هى الاحتراس والبعد عن الشر . . لذلك

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اعملوا بينكم وبين النار وقاية . احترسوا من أن تقعوا فيها . . ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم ـ والقرآن كله كلام الله ـ «إتقوا الله» ويقول : «اتقوا النار» . كيف نأخذ سلوكا واحدا تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التى سيعذب فيها الكافرون ؟!

الله تعالى يقول : «اتقوا النار» . أى لاتفعلوا مايغضب الله حتى لا تعذبوا فى النار . . فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصى وفعلت الخير .

وقوله تعالى : «اتقوا الله» كيف نتقيه بينما نحن نطلب من الله كل النعم وكل الخير دائما. كيف يمكن أن يتم هذا ؟ ،وكيف نتقى من نحب ؟ .

نقول ان لله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال . . صفات الجلال تجدها فى القهار والجبار والمذل . . والمنتقم . والضار .كل هذا من متعلقات صفات الجلال . . بل إن النار من متعلقات صفات الجلال .

أما صفات الجمال فهى الغفار والرحيم وكل الصفات التى تتنزل بها رحمات الله وعطاءاته على خلقه . فاذا كنت تقى نفسك من النار ـ وهى من متعلقات صفات الجلال ـ لابد أن تقى نفسك من صفات الجلال كلها . لأنه قد يكون من متعلقاتها ما هو أشد عذابا وايلاما من النار . . فكأن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : «اتقوا النار» . و: «اتقوا الله» يعنى أن نتقى غضب الله الذى يؤدى بنا الى أن نتقى كل صفات جلاله . . ونجعل بيننا وبينها وقاية . فمن اتقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(اذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلى الجبار بالمغفرة)[1]

وكان المنطق يقتضى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجلى الرحمن بالمغفرة) ولكن مادامت هناك ذنوب ، فالمقام لصفة الجبار الذى يعذب خلقه بذنوبهم . فكأن صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار .. وصفة الجبار مقامها للعاصين ، فتأتى صفة الغفار لتشفع عندها ، فيغفر الله للعاصين ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجلى الجبار بجبروته بالمغفرة فساعة تأتى كلمة جبار .. يشعر الانسان بالفزع والخوف والرعب . لكن عندما تسمع (تجلى الجبار بالمغفرة) فإن السعادة تدخل الى قلبك . لأنك تعرف أن صاحب العقوبة وهو قادر عليها قد غفر لك . والنار ليست آمرة ولا فاعلة بذاتها ولكنها مأمورة . اذن فاستعذ منها بالآمر أو بصفات الجمال فى الآمر .

يقول الحق سبحانه وتعالى «هدى للمتقين» ولقد قلنا ان الهدى هدى الله .. لأنه هو الذى حدد الغاية من الخلق ودلنا على الطريق الموصل اليها . فكون الله هو الذى حدد المطلوب ودلنا على الطريق اليه فهذه قمة النعمة .. لانه لم يترك لنا أن نحدد غايتنا ولا الطريق اليها . فرحمنا بذلك مما سنتعرض له من شقاء فى أن نخطىء ونصيب بسبب علمنا القاصر ، فنشقى وندخل فى تجارب ، ونمشى فى طرق ثم نكتشف أننا قد ضللنا الطريق فنتجه الى طريق آخر فيكون اضل وأشقى .

وهكذا نتخبط دون أن نصل الى شىء .. وأراد سبحانه أن يجنبنا هذا كله فأنزل القرآن الكريم .. كتاباً فيه هداية للناس وفيه دلالة على أقصر الطرق لكى نتقى عذاب الله وغضبه .

والله سبحانه وتعالى قال : «هدى للمتقين» أى أن هذا القرآن هدى للجميع .. فالذى يريد أن يتقى عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذى يحدد له هذه الغاية .. فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميعا . ثم خص من آمن به بهدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة .

---

(١) كنز العمال ، وفى حديث آخر : (.. اذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر ؟ فقال : لا .. ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وُفُّوا أجورهم) رواه البيهقى .

اذن فهناك هدى من الله لكل خلقه وهو أن يدلهم سبحانه وتعالى ويبين لهم الطريق المستقيم . هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدل الله خلقه جميعا على الطريق الى طاعته وجنته . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

اذن الحق سبحانه وتعالى دلهم على طريق الهداية .. ولكنهم أحبوا طريق الغواية والمعصية واتبعوه .. هذه هداية الدلالة .. أما هداية المعونة ففى قوله سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وهذه هى دلالة المعونة .. وهى لا تحق إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها .. والله سبحانه وتعالى لايعين من يرفض هداية الدلالة ، بل يتركه يضل ويشقى .. ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله تبارك وتعالى : يقول لنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهكذا نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون هاديا لمن أحب .. ولكن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فكيف يأتى هذا الاختلاف مع أن القائل هو الله .

نقول : عندما تسمع هذه الايات اعلم أن الجهة منفكة . . يعنى ما نفى غير ما أثبت . . ففى غزوة بدر مثلا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى قذفها فى وجه جيش قريش . يأتى القرآن الكريم الى هذه الواقعة فيقول الحق سبحانه :

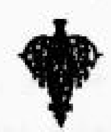
﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

نفى للحدث وإثباته فى الآية نفسها . كيف رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أن الله تبارك وتعالى قال : «ومارميت» ؟! نقول إنه فى هذه الآية الجهة منفكة . الذى رمى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذى أوصل الحصى الى كل جيش قريش لتصيب كل مقاتل فيهم هى قدرة الله سبحانه وتعالى . فما كان لرمية رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى يمكن أن تصل الى كل جيش الكفار ، ولكن قدرة الله هى التى جعلت هذا الحصى يصيب كل جندى فى الجيش .

أما قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :«وإنك لتهدى الى صراط مستقيم» .

فهى هداية دلالة . أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه للقرآن وبيانه لمنهج الله قد دل الناس كل الناس على الطريق المستقيم وبينه لهم . وقوله تبارك وتعالى : «إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء» . . أى إنك لا توصل الهداية الى القلوب لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يهدى القلوب ويزيدها هدى وإيمانا . ولذلك أطلقها الله تبارك وتعالى قضية ايمانية عامة فى قوله : «قل ان الهدى هدى الله» فالقرآن الكريم يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أن يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .



﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

بعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب ـ وهو القرآن الكريم ـ « هدى للمتقين » . . أى أنَّ فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية . . أراد أن يعرفنا صفات هؤلاء المتقين ومن هم . . وأول صفة هى قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » . .

ما هو الغيب الذى جعله الله أول مرتبة فى الهدى . . وفى الوقاية من النار ومن غضب الله ؟ . .

الغيب هو كل ما غاب عن مدركات الحس . فالأشياء المحسة التى نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد . . ولذلك يقال ليس مع العين أين . . لأن ما تراه لا تريد عليه دليلا . . ولكن الغيب لا تدركه الحواس . . إنما يدرك بغيرها . .

ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا أن هناك خمس حواس ظاهرة هى : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . . ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس . .

لنفرض أن أمامنا حقيبتين . . الشكل نفسه والحجم نفسه . هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيهما أثقل من الأخرى ؟ . هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أى الحقيبتين أثقل ؟ . . لا . . لابد أن تحمل واحدة منهما ثم تحمل الأخرى لتعرف أيهما أثقل . .

بأى شىء أدركت هذا الثقل ؟ . . بحاسة العضل . . لأن عضلاتك أُجهدت عندما حملت احدى الحقيبتين ، ولم تجهد عندما حملت الثانية . . فعرفت بالدقة أيهما أثقل ، لاتقل باللمس ؛ لأنك لو لمست احداهما ثم لمست الأخرى لاتعرف أيهما

أثقل .. إذن فهناك حاسة العضل التى تقيس بها ثقل الأشياء ..

ولنفرض أنك دخلت محلا لبيع القماش ، وأمامك نوعان من قماش واحد .. ولكن أحدهما أرق من الآخر .. بمجرد أن تضع القماشين بين أناملك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكا .. بأى حاسة أدركت هذا ؟ ليس بحاسة اللمس ولكن بحاسة البينة وحكمها لا يخطىء ..

وعندما تشعر بالجوع .. بأى حاسة أدركت أنك جوعان ؟.. ليس بالحواس الظاهرة .. وكذلك عندما تظمأ .. ما هى الحاسة التى أدركت بها أنك محتاج الى الماء .. وعندما تكون نائما .. أى حاسة تلك التى توقظك من النوم .. لا أحد يعرف ..

اذن هناك ملكات فى النفس وهى الحواس الظاهرة .. وهناك ادراكات فى النفس .. وهى حواس لا يعلمها إلا خالقها .. لذلك عندما يأتى العلماء ليضعوا تعريفا للنفس البشرية نقول لهم : ماذا تعرفون عن هذه النفس ؟!.. انكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .. ولكن هناك أشياء داخل النفس لا تعرفونها .. هناك ادراكات لا يعلم عنها الانسان شيئا ، وهى ادراكات كثيرة ومتعددة .. لذلك يخطىء من يقول إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب .. لأن هناك ملكات وادراكات متعددة تعمل بغير علم منا .

لو أعطى لطالب تمرين هندسى فحله وأتى بالجواب .. هل نقول أنه عَلِمَ غيبا ؟.. لأن حل التمرين كان غيبا عنه ثم وصل اليه .. لا .. لأن هناك مقدمات وقوانين أوصلته الى هذا الحل .. والغيب بلا مقدمات ولا قوانين تؤدى اليه ، وهل عندما تعلن الأرصاد الجوية أن غدا يوم مطير شديد الرياح .. أتكون قد عَلِمَتْ غيبا ؟.. لا .. لأنها أخذت المقدمات ووصلت بها الى نتائج وهذا ليس غيباً ..

واذا جاء أحد من الدجالين وقال لك ان ما سرق منك عند فلان .. أيكون قد علم الغيب ؟.. لا .. لأنه يشترط فى الغيب ألا يكون معلوما لمثلك .. وما سرق منك معلوم لمثلك .. فالسارق والذى بيعت له المسروقات يعرفان من الذى سرق ، وما الذى حدث .. والشرطة تستطيع بالمقدمات والبصمات والبحث أن تصل الى السارق ومن اشترى المسروقات .. وإذا جاءك دجال من الذين يسخرون الجن ..

والمعروف أن الجن مستورعنا يمتاز بخفة الحركة وسرعتها . . والله سبحانه وتعالى يقول عن الشيطان :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فقد يكون هذا المستعان به من الجن قد رأى شيئا . . أو انتقل من مكان إلى آخر . . فيعرف شيئا لا تعرفه أنت . . هذا لا يكون غيباً لأنك جهلته ، ولكن غيرك يعلمه بقوانينه التى خلقها الله له . . والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون . . أيقال إنهم أطلعوا على الغيب ؟ . . لا . . لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا الى هذه النتائج فهو ليس غيبا .

ولكن ما هو الغيب ؟ . .

هو الشيء الذى ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل اليه علم خَلْقٍ من خلق الله حتى الملائكة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى حينما عَلَّمَ آدمَ الاسماء كلها وعرضهم على الملائكة قال جل جلاله :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والجن أيضا لا يعلم الغيب . . ولذلك عندما مات سليمان عليه السلام . . وكان الله سبحانه وتعالى قد سَخَّرَ له الجن لم تعلم الجن بموته إلا عندما أكلت دابة الأرض

عصاه . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى . . واقرأ قول الحق جل جلاله :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب . . ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم بما يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم ولمن اتبعوهم .

وقمة الغيب هى الايمان بالله سبحانه وتعالى . . والايمان بملائكته وكتبه ورسله والايمان باليوم الآخر . . كل هذه أمور غيبية ، وحينما يخبرنا الله تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم . . نقول مادام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم . . وإذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر . . فمادام الله قد أخبرنا فنحن نؤمن باليوم الآخر . . لأن الذى أخبرنا به هو الله جل جلاله . . آمنت به أنه اله . . واستخدمت فى هذا الايمان الدليل العقل الذى جعلنى أؤمن بأن لهذا الكون إلهاً وخالقاً . . وما يأتينى عن الله حيثية الايمان به أن الله سبحانه وتعالى هو القائل .

ولابد أن نعرف أن وجود الشىء مختلف تماما عن ادراك هذا الشىء . . فأنت لك روح فى جسدك تهبك الحياة . . أرأيتها ؟ . . أسمعتها ؟ . . أذقتها ؟ . . أشممتها ؟ . . ألمستها ؟ . . الجواب طبعا لا . . فبأى وسيلة من وسائل الادراك تدرك أن لك روحا فى جسدك ؟ بأثرها فى إحياء الجسد . .

إذن فقد عرفت الروح بأثرها ، والروح مخلوق لله . . فكيف تريد وأنت عاجز أن تدرك مخلوقا فى جسدك وذاتك وهو الروح بآثارها . . ان تدرك الله سبحانه وتعالى بحواسك .

ونحن اذا آمنا بالقمة الغيبية وهو الله جل جلاله . . فلابد أن نؤمن بكل ما يخبرنا عنه وان لم نَرَه . . ولقد أراد الله تبارك وتعالى رحمة بعقولنا أن يقرب لنا قضية الغيب فأعطانا من الكون المادى أدلة على أن وجود الشيء ، وادراك هذا الوجود شيآن منفصلان تماما . .

فالجراثيم مثلا موجودة فى الكون تؤدى مهمتها منذ بداية الخلق . . وكان الناس يشاهدون آثار الأمراض فى أجسادهم من ارتفاع فى الحرارة وحمى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب . . فلما ارتقى العلم وأذن الله لخلقه أن يروا هذا الوجود للجراثيم . . جعل الله العقول قادرة على أن تكتشف المجهر . . الذى يعطينا الصورة مكبرة . . لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة . . فلما اكتشف العلم المجهر . . استطعنا أن نرى هذا الجراثيم . . ونعرف أن لها دورة حياة وتكاثر إلى غير مايكشفه الله لنا من علم كلما تقدم الزمن . .

إن عدم قدرتنا على رؤية أى شيء لا يعنى أنه غير موجود . . ولكن آلة الإدراك ـ وهى البصر ـ عاجزة عن أن تراه ، لأنه غاية فى الصغر . . فاذا جئت بالمجهر كبر لك هذا الميكروب ليدخل فى نطاق وسيلة رؤيتك وهى العين . . ورؤيتنا للجراثيم والميكروبات ليست دليلا على أنها خلقت ساعة رأيناها . . بل هى موجودة تؤدى مهمتها . . سواء رأيناها أو لم نرها .

فلو حدثنا أحد عن الميكروبات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين . . هل كنا نصدق ؟ . . والله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك فى زمنه لبعض حقائق الكون ليرتقى الانسان ويدرك بعد ذلك . . وكان المفروض أنه يزداد ايمانا . . عندما يدرك وليعرف الخلق بالدليل المادى أن ما هو غيب عنهم موجود وان كنا لا نراه . .

والله تبارك وتعالى قد أعطانا من آياته فى الكون مايجعلنا ندرك أن لهذا الكون خالقا . . فالشمس والقمر والنجوم والأرض والانسان والحيوان والجماد لا يستطيع أحد أن يدعى انه خلقهم . . ولا أحد يمكن أن يدعى أنه خلق نفسه أو غيره . .

ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أن يوجد مصادفة ؛ لأن المصادفات أحداث غير مرتبة أو غير منظمة . . ولو وجد هذا الكون مصادفة لتصادمت الشمس والقمر والنجوم والأرض ولاختل الليل والنهار . .

ولكن كل ما فى الكون من آيات يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة هى التى خلقت ونظمت وأبدعت . . فإذا جاءنا رسول يبلغنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق هذا الكون فلابد أن نصدقه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « ويقيمون الصلاة » . . والصلاة هى إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى وهى لا تسقط عن الانسان أبدا . . فالانسان يصلى وهو واقف ، فإن لم يستطع يصلى وهو جالس . فإن لم يستطع ، فيصلى وهو راقد . . ولا تسقط الصلاة عن الانسان من ساعة التكليف إلى ساعة الوفاة كل يوم خمس مرات . .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « ومما رزقناهم ينفقون » . . وحين نتكلم عن الرزق يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال . . نقول له لا . . الرزق هو ما ينتفع به . فالقوة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق . . وكل ما فيه حركة للحياة رزق . . فإن لم يكن عندك مال لتنفق منه فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال . . وتتصدق بها على العاجز المريض . . وان كان عندك حلم . . فإنك تنفقه بأن تقى الأحمق من تصرفات قد تؤذى المجتمع وتؤذيك . . وان كان عندك علم انفقه لتعلم الجاهل . . وهكذا نرى : « ومما رزقناهم ينفقون » تستوعب جميع حركة الحياة .

